الدار الاسلامية

في مصر

للصاغ عبد الرحمن زكي

لسنا بحاجة الى القول بأن أصول الريازة لم تكن معروفة في بلاد العرب قبل الاسلام اللهم اذا استثنينا اقاليم اليمن وغسان والحيرة حيث قامت مدينات قديمة قبل الاسلام . فقد كان العربي على معرفة يسيرة بفن البناء . ولم تكن اماكن السيادة في بلاد العرب سوى اقنية مربعة صغيرة يحوطها اربعة جدران لا يزيد ارتفاعها على ثلاث أذرع . وهذه بالطبع لا تعدمن أعمال الريازة بالمعنى المفهوم منها . والمعلوم ان العرب لم ينقلوا الى البلدان التي أخضعوها لسلطانهم أي أثر لريازة عربية . ففي ذلك الوقت كان العرب الرحّل يؤلفون نسمة اعشار سكان البلاد العربية . وربما كانت الخيمة المصنوعة من الشعر مسكنهم الوحيد . والبدوي لا يطيق العيش داخل غرفة مغطاة بسقف لانهُ شاعر بطبيعته يرتاح الى تسريح طرفه في السماء وهو مستلقٍ على ظهره في العراء أو داخل خيمته ذات الغطاء غير المحكم . . . ولذا فهو يحس بالضيق بل يكاد يشعر نفسه سجيناً أو في فخ أو شَرَك اذا ما سكن في غرفة

ولو أن الدين الاسلامي الجديد الذي بزغ نجمه في شبه الجزيرة العربية بقي في ربوعها ولم ينتشر في الأقاليم المجاورة لما أصبح للريازة [1] الأسلامية ذلك الأثر العظيم من الجمال والكمال . ولما كنا نرى الفن الأسلامي الرائع في أسطع صورة يحتل مكانة سامية في ميادين النشاط الفني الذي ابتدعتهُ البشرية

والواقع أن الصناع المسلمين او الذين عملوا بارشاد الرائز المسلم أبدعوا في بناء منشآتهم وزخرفتها بما يتفق تماماً مع طبيعة عقيدتهم الدينية ووقار دينهم الحنيف وما يسابر طقوس عبادتهم

ولقد وصف كتّاب السيرة دار سيدنا محمد في المدينة وصفاً دقيقاً نستنتج منهُ أن هذه الدار كانت في أول الأمر تشتمل على فناء مربع الشكل تحيط به جدران أربعة مشيدة من اللبن ويبلغ ارتفاعها ثلاثة امتار ونصف متر . واشتمل احد الجوانب على صُفة كان النبي ينام فيها

(١) المقتطف : — وضعنا هنا كلمة الرائز بدلا من كلمة المساح والرائز والراز رئيس البنائين وجمعه رازة . والريازة هي فن هندسة البناء .

المصلين وكان لها سقف من جريد النخل مغطى بطبقة من الطين والقائم على عدد من جذوع النخل . وكان للدار ثلاثة ابواب وفي الجانب الخارجي من الجدار الشرقي شبكت حجرات لزوجات النبي يوضع منها من اللبن وخمس من الجريد للعلو بالطين وفي الجانب المقابل للقبلة دوي صغير كان ملجأ لفقراء المسلمين الذين تبعوا النبي من مكة

فاذا أمعنا النظر في شكل الدار الاولى التي عرفنا ما كان عليه رسول الله من القناعة والزهد ورفقنا على بساطة فن البناء في صدر الاسلام وعلمنا ايضاً ما كانت عليه الدار الاسلامية الأولى

وما تقدم نرى أن ابن خلدون كان محقاً في ما كتبه حين قال « كان الدين في أول الأمر مانعاً من المغالاة في البنيان والاسراف فيه في غير قصد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل فقال افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات (غرف) ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة (١)

فتح العرب لمصر

وأراد عمرو بن العاص بعد فتح مصر ان تبقى الأسكندرية كما كانت عاصمة البلاد فلما أبى عمر بن الخطاب عليه ذلك ترك عمرو مسألة الأسكندرية وشرع في تخطيط مدينة جديدة أمر بانشائها بالقرب من قصر الشمع حصن الحامية الرومانية — في المكان الذي حط فيه الجنود المسلمون رحالهم . وضرب عمرو بالقرب منه فسطاطه قبل رحيله لفتح الأسكندرية

قام بتخطيط الفسطاط أربعة من زعماء الجند يمثلون قبائلهم فقسموها الى اخطاط اتخذت كل قبيلة لنفسها خطة منها . وفي خلال عام واحد تمت تلك المدينة بسرعة عجيبة وكنا لا نعرف شيئاً عن تفاصيل البناء الذي اقامه المسلمون في الفسطاط الى أن تم كشف أنقاضها في حفائر دار الآثار العربية فظهرت بيانات كثيرة عن عمارة الفسطاط ولاسيما شكل تخطيطها وعدد دورها

لقد كشفت حفائر الفسطاط دوراً كثيرة لها أبنية متوسطة الحجم وظهر منها أن الغرف في كل دار كانت تحيط بالحوش في نظام مماثل لما في الدور الأخرى . اللهم الا في احوال نادرة . وكانت جميع هذه الدور على نظام هندسي قائم على محورين يلتقيان في وسط حوش وتختلف الغرف المحيطة به في المقياس والنسب . وفي كل جنب من جوانب الحوش رواق ذو ثلاث فتحات تختلف في الضيق والسعة . منها الفتحة الوسطى وهي أوسع من الفتحتين الجانبيتين وفصلها عنهما كتفان مبنيان بالآجر . وفي صحن الرواق القاعة ، وتكتنفها من جانبيها حجرتان صغيرتان منعزلتان عنها . وفي الجوانب الثلاثة الاخرى من الحوش في محور كل جانب ايوانات تختلف في الامتداد

(١) الفصل الثامن من الباب الرابع في مقدمة ابن خلدون « في ان البناني والصنائع تابعة في الملة الاسلامية بالنسب الى ثروتها وحال ما كان قبلها من الدول »

الى الداخل فتتكون منها ثمرة قاعات وطوراً وهو الاغلب ايوانات صغيرة او صفف . ويلاحظ في الرواق ذي الثلاث البلاطات الذي يمر منه الداخل الى الغرف الباقية من السكن أنها شرقية وفي بعض الأحيان تكون غربية . وكانوا يتجنبون الجنوب كما يتجنبون الشمال وكانت أهم مشتملات دار الفسطاط الأجزاء الآتية :

ا — الحوش ويتوسط الدار وهو غير مسقوف وبقاسه في الغالب بين أربعة وخمسة أمتار مكشوف ليتوفر للقاعة الكبيرة النسيم والنور

ب — الرواق والقاعة . هما المحلان المهمان في الدار — ويلاحظ ان هذا النظام في الدور لايزال باقياً حتى الآن في مدن اسبانيا الجنوبية وفي شمالي افريقيا وفي عدة جهات من العالم الاسلامي . وقد وجد منذ بدء الفن الاسلامي في الاخيضر وفي سامرا كما نراه في قصر ست الملك [١] قبل أن يضم الى مارستان قلاوون [٢]

ج — الايوانات وهي من المميزات الرياضية التي ترافق الحوش حيث يسهل التنقل فيها من محل الى آخر على حسب الفصول وساعات النهار

ومن المحتمل ان باب الدار لم يكن في اتجاه محور من المحاور ويظهر ان الدركاة او الدهليز الذي يؤدي الى الباب كانت على شكل مخدع وان كان ذلك لم يستنتج من الحفائر وانما هو من القواعد العامة التي كانت متبعة في المباني الاسلامية في كل العصور والغرض منه حجز ما يجري في الحوش أو القاعة عن نظر من بالخارج

***

لم تكن منازل العرب في أول الأمر بمدينة الفسطاط تحتوي الا على طبقة واحدة أرضية

وقد قيل ان أول من بنى غرفة ذات طبقتين بالفسطاط هو « خارجة بن حذافة » فبلغ عمر ابن الخطاب أمرها فكتب الى عمرو « ادخل غرفة خارجة واقصب فيها سريراً وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير فان اطلع من كوتها على عورات جيرانه فاهدمها » ففعل ذلك عمرو [٣] . ولما وجدها غير صالحة أمرها فأخذت البيوت تتسع كما أخذت عمارة المدينة تزدهر وتزداد حتى فاقت مدينتي البصرة والكوفة [٤]

وعلينا أن نقرأ بتحفظ رواية الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار مصر . فقد ذكر ان بعض دور الفسطاط كانت مكونة من اربعة عشر طابقاً . فلو فرضنا ان هذه الطبقات كانت

(١) دار ست الملك بنت العزيز لدين الله نزار وأخت الحاكم بأمرالله . وسكن هذه الدار في الدولة الايوبية مؤنسة بنت الملك العادل ابن بكر بن ايوب ثم الامير بدر الدين جاركس صاحب القيسارية بالقاهرة ثم سكنها الملك الافضل قطب الدين حتى أخرجهم الملك المنصور قلاوون منها ولكن قطب الدين الايوبي بها مدفون الدار القطبية (٢) المصدر السابق (خطرات الفسطاط) ص ٩١ (٣) ابن دقاق ج ٤ ص ٦ (٤) القاهرة الجزء الاول ص ١٠٤ — للمازم الاول عبد الرحمن زكي — عام ١٩٣٢

ذات ارتفاع قليل لكن ارتفاع البيت يقرب من خمسة وثلاثين متراً على اقل تقدير ولكن رواية ناصر خسرو قد تكون دليلاً على ان بيوت المدينة كانت طبقات (١)

كما أنه قد وصل الينا أن بعض المخازن أصبحت واطئة جداً (٢) ومن البديهي ان المدينة لا تكون أبنيتها كلها على طراز واحد فتكون فيها الفنادق والرباع وكانوا يشيدونها في الجهات المزدحمة بالمتاجر على ضفاف النيل وبجانبها الدور ومن بينها ما يكون مخصصاً لأسرة واحدة

ولقد أثبتت حفريات الفسطاط ان بعض الدور كان لها حوشان منفصلان بحيث أمكن اعتبار كل حوش وسط دار قائمة بذاتها . ومن المحتمل أيضاً ان يكون أحدهما مخصصاً للرجال والآخر للحريم ، وان كنا لم نوفق حتى الآن الى معرفة الحالة الاجتماعية التي كان يعيش فيها النساء في اوائل الفتح الاسلامي وفي العهدين العباسي والطولوني . وعلى كل حال فالمعروف ان الغرف لم تكن معدة لغرض مخصوص كما تطورت الحال فيما بعد وفي بيوتنا الآن (٣) فان القاعة الكبيرة والرواق والاواوين والصحن كل ذلك كان يشتمل لاستقبال الزائرين تبعاً لأوقات النهار والفصول

ونحن اذا استثنينا بعض الدور الاسلامية التي كشفها المرحوم الاستاذ علي بك بهجت في الفسطاط بين سنتي ١٩١٢ و١٩١٩ لا نعرف آثاراً أخرى نقف منها على نظام الدور التي سكنها الولاة والحكام الامويون والعباسيون وهذه المنازل التي كشفت في الفسطاط من المحتمل جداً أن نرجعها الى عهد العباسيين والطولونيين . وقد بلغت الفسطاط في ذلك الحين غاية في القدر والثراء . والواقع ان الموازنة بين أبنية الفسطاط وأبنية سامرا وجامع ابن طولون ثم أوجه الشبه بين الزخارف التي كانت تحلى بها بعض واجهات الدور في الفسطاط والزخارف المنقوشة على بعض شواهد القبور في القرنين الثالث والرابع الهجريين كل ذلك يرجح ان معظم أبنية الفسطاط كانت من عصر الدولتين العباسية والطولونية (٤)

ومن الخطط المقريزية عرفنا وصف القصر الذي شيده احمد بن طولون وابنه خمارويه في القطائع بعد ان خربت وبحيت آثارها من الوجود (٢٩٢ هـ — ٩٠٥ م) على يد محمد بن سليمان الكاتب (الخطط ج ٢ — ص١٠٦) . ولا حاجة بنا الى هذا الوصف العام الذي أورده المؤرخ المقريزي عن هذا القصر . فهذا الوصف لا يعيننا البتة على معرفة نظام هندسته وتوزيع غرفه الداخلية او أجزائه الرئيسية وارتفاعها وسمكها . الخ مما يساعدنا على اثبات نقط واضحة في هذا الموضوع . والخيال ايضاً لا يصل بنا الى شيء حاسم

(١) حفريات الفسطاط ص ٩١ للمرحوم علي بك بهجت (٢) المصدر السابق . ص ٩٤ (٣) المصدر السابق ص ٩٦ (٤) ذكر ابن دقاق في وصفه دور مصر اسماء عدة من الغرف والحال التي يشتمل عليها المسكن فأورد المجلس والباذهنج والمستوق والطوبج والطارمة (ابن دقاق ج ٤ — ص ١١٨) راجع ايضاً المقال النفيس « أقدم دار اسلامية في مصر » بقلم المرحوم الاستاذ حسن محمد الهواري المنشور في مجلة الهندسة بالعدد ٨ و٩ و١٠ عام ١٩٣٥

القسم الشرقي من دار الامارة في مصر

وفي عام ١٩٣٢ وفق المرحوم الأستاذ حسن الهواري اثناء اشرافه على حفريات الفسطاط الى العثور على جزء من دار أمكنه تحديد عصرها لكثرة الزخارف التي على جدرانها . وهذا الجزء عبارة عن القسم الشرقي من دار تشبه في نظامها الهندسي أغلب الدور المكتشفة في مدينة الفسطاط . ويشمل قاعة كبرى يزيد طولها على عرضها وتكتنفها من جانبيها حجرتان صغيرتان وأمام القاعة والحجرتين رواق كان له كتفان باقية احداهما وهي الشرقية بفصلانه عن فناء الدار . وفي مجرى الفناء بركة ماء (فسقية) مربعة الشكل . وقد عثر في الركن القبلي الشرقي لهذه الفسقية على بقايا أنابيب من الفخار كانت تجري فيها المياه التي تغذي الفسقية

وقد أمكن بموازنة الزخارف الجصية التي تغطي محراب هذه الدار وبعض الجدران بمثيلاتها في جامع ابن طولون ان نقول انها من نفس الصناعة والروح . وهذه الدار التي مر على بنائها اكثر من الف عام حرية بان تكون لأحد امراء القوم في ذلك العهد . ولسنا نعلم الشيء الكثير عن الدار في العهد الاخشيدي القصير الأجل . وقد ذكر المقريزي ذلك البستان الذي امر بغرسه محمد بن طغج الاخشيد وسماه المختار . وبنى فيه قصراً واماكن له ولغلمانه وكان يفاخر به اهل العراق

القصور الفاطمية

واذا تقصنا الدار الأسلامية في مصر بعد العهد الطولوني لم نجد ما نهتدي به لمعرفة تفصيلات اخرى . سواء أكان ذلك من الآثار أم من كتب الخطط الأسلامية . فاذا ما وصلنا الى العصر الفاطمي وقلبنا صفحات الخطط المقريزية وجدناها تفيض في وصف القصرين الشرقي والغربي او القصرين الكبير والصغير . ومع ذلك لا نوفق الى رصف دقيق من الناحية المعمارية الهندسية كما قلنا وان كانت هناك تفصيلات كثيرة عن القصر الكبير الشرقي الذي وضع أساسه القائد جوهر والقصر الصغير الغربي والقصر الذهبي وقصر الذهب وقصر الاقبال وقصر الظفر وقصر الشجرة وقصر الشوك وقصر الزمرد وقصر النسيم وقصر الحريم وقصر البحر . وتلك كلها قاعات ومناظر شيدت في داخل سور القصر الكبير . وسميت القصور الزاهرة . وكان بجوار القصر الغربي الميدان والبستان الكافوري . وألحقت بالقصرين دور كثيرة ومبان عدة عرفت بأسماء مستقلة

وكان للفاطميين عدة مناظر ودور سلطانية غير تلك القصور منها دار الضيافة ودار الوزارة ودار الضرب ومنظرة الجامع الأزهر ومنظرة الجامع الاقمر ومنظرة اللؤلؤة ومنظرة المقس ومنظرة الدكة والتاج ودار الملك بمدينة مصر . . . . الخ .

ويمكننا أن نقف على وصف عام للقصر الشرقي مما أورده المقريزي . فكانت اجزاؤه تشتمل على عدة خطط واحياء تخترقها الطرقات والمسالك التي توصل الى اجزائه المختلفة وتضيء الاقية

الكبيرة غير ما سبق ذكره من الأبنية الداخلية الصغيرة . وكان يحتوي على سكن للحريم وأهم أجزائه قاعة الذهب (قصر الذهب) وهي احدى قاعات القصر وشيدها العزيز بالله نزار بن المعز . وكان مدخله في باب الذهب وقد جدد هذا القصر الخليفة المستنصر (٤٢٨ هـ) وكان الخلفاء يجلسون في هذه القاعة في اعيادهم . وبها كان يعمل سماط شهر رمضان للأمراء وسماط العيدين . وكان فيها سرير الملك

وذكر المقريزي انهُ في النصف من رمضان جلس المعز في صدره على السرير الذهب الذي عمله القائد جوهر في الايوان الجديد ولم يصف لنا هذا الايوان بكلمة . فهل تتخيلهُ ايواناً ذا عقود واسعة يشرف على فناء القصر او تتخيله ايواناً مسقفاً بالقباب العظيمة العالية كما كانت عليه ايوانات قصور الساسانيين في بارفستان او المدائن (اكتيسيفون) او كان ذلك الايوان قريب الشبه بالردهات . وقد وصلنا لحسن الحظ وثيقة خطيرة الشأن ، تثبت عظمة القصر الفاطمي وأبهته ، حين زاره رسولا الملك عموري (أمريك) سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ليعقدا مع الملك العادل باسم سيدهما تحالفاً توامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتي الف دينار معجلة ومثلها مؤجلة ، لظهير دفاعهم عن مصر وصدهم الاعداء عنها

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور (Guillaume de Tyr) زيارة الرسولين الصليبيين وعبّر عن حماسهما واعجابهما بعظمة ما رأياه وروعة كثير مما شاهداه ، وقد نقل جستاف شلمبرجيه (Gustave Schlumberger) الى الفرنسية بعض ما كتبهُ غليوم في هذا الصدد ، كما لخص لين بول (Lane Poole) بعضهُ في كتابه عن تاريخ مصر وكتابه عن صلاح الدين

وسار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور ينتضيه الى قصر له رونق وبهجة عظيمان . وفيه زخارف أنيقة نضيرة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثر دون أن يتطرق الى نفوسهم أي خوف أو رهبة . ووجدوا في هذا القصر حراساً عديدين وسار الحراس في طليعة الموكب ، وسيوفهم مسلولة ، وقادوا الفرنج في ممرات طويلة ضيقة وأنية حالكة الظلمة ، لا يستطيع الانسان أن يتبين فيها شيئاً . وربما كان المقصود بذلك بعث الرهبة الى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . ولما خرجوا الى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متلاقية كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلحين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونهُ باحترام . ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف ، تحيط بهِ أروقة ذات أعمدة وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان ، وفيها تذهيب خارق للعادة بنضارته وبهائه ، كما كانت ألواح السقف زينتها الزخارف الذهبية الجميلة

وكان كل ذلك منظراً رائعاً بحيث لا يملك أشغل الناس بالاً وأكتومهم همًّا الاَّ أن يقف الاعجاب بهِ . وكان في وسط الفناء ناقورة ، يجري الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب

والفضة الى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام . وكانت ترفرف في الفضاء أنواع لا حصر لها من الطيور الجميلة . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة اعجاباً بها ودون أن يقول أن الطبيعة أبدعت حين كوّنت هذه المخلوقات الحية . ومن هذه الطيور ما كان يلزم الناعورة ، ومنها ما كان يظل بعيداً عنها كلٌّ بحسب صيحته ، وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه

وهنا استأذن في الرجوع الحراس الذين كانوا يسيرون في مقدمة الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت ، وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين الى الخليفة نفسه . وصار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين في أفنية جديدة ، أشد جمالا وابداعاً ، ثم الى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها . ورأوا في هذه الحديقة أنواعاً من الحيوانات ذوات الأربع غريبة بحيث يتهم المرء بالكذب اذا وصفها ، أو تحدث عنها وبحيث لا يستطيع أي مصور أن يتخيل أو ان يحلم بمثل هذه الكائنات العجيبة . فان الغرب لم يرَ قط مثل هذه الحيوانات ، ولم يكن يعرفها الا بما كان يسمع من الاقوال

وبعد أن عبروا أبواباً عديدة أخرى ، وساروا في ممرات كثيرة ، كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة واعجاباً ، وصل الفرنج الى القصر الكبير ، حيث يقطن الخليفة . وفاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك . وكانت أثيته تفيض بالمحاربين المسلمين متقلدين أسلحتهم وعليهم الزرد والدروع ، تلمع بالذهب والفضة ، وعليهم سيماء الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز . وأدخل المبعوثون في قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والاحجار الثمينة . ولم يكن في هذه القاعة أحد ، لكن شاور خرّ راكعاً ساعة دخوله ، ثم نهض واقفاً ثم قبل الارض ثانية . وخلع السيف الذي كان يلبسه في عنقه ، ثم خرّ ساجداً مرة ثالثة في ذلة وخشوع كأنه يسجد لله . وارتفعت الحال فجأة ، ولما كشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق ، كأنها ملاءة خفيفة ظهر الخليفة الطفل (السلطان العاضد) لأعين الفرنج المبعوثين . وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماماً . وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والاحجار الثمينة

ولنعتقد أننا لنستطيع ان نخرج من هذا الوصف الرائع بصورة عن هندسة القصر الفاطمي الكبير

اربعة بيوت والممالك المجرية

وفي أيام سلاطين الايوبيين والطبقة الأولى من المماليك تجملت القاهرة بما شيد في احيائها من القصور الفخمة والدور الواسعة التي كانت تمتاز بطابع يجمع بين وسائل الدفاع والرفاهية

في مظهرها. كانت كالقلاع الحصينة وكانت مبانيها في جموعها الانشائي عظيمة. ذات ابراج مربعة وقاعات فسيحة وسقوف مقببة ترتفع على عمد عالية. ويلاحظ الانسان تطوراً ظاهراً في اساليب العمارة الايوبية التي نقلها الايوبيون عن آثار الصليبيين في الشام. كما يلاحظ تقدماً في مواد البناء وجمالاً في الزخرفة. ولقد استمدت بعض منشآت ذلك العصر موادها الاساسية وهي الحجارة من الآثار المصرية والرومانية. كالاهرامات والمعابد واصطبل مظهرها الخارجي بصبغة عسكرية ظاهرة. وقد دوّن المؤرخون وكتّاب الخطط ما احتوت عليه قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين) وقلعة الروضة من مبانٍ عظيمة. فقد أحب صلاح الدين بعد ما خلا له الجو في مصر ان يجعل لنفسه معقلاً بمصر فوزع القصور الفاطمية بين امرائه. وألزمهم فيها وامر الأمير بهاء الدين قراقوش الاسدي بانشاء قلعة الجبل (٥٧٢هـ) وأزال المساجد والقبور والاضرحة التي أقيمت مكانها القلعة العظيمة وبنيت في داخلها الدور السلطانية (٦٠٤هـ). واستمرت دار ملك الى ايام محمد علي باشا ولا نعلم ما اصاب القلعة في ايام خلفاء الكامل بعد عام ٦٣٥هـ. فقد هجرها الملك الصالح نجم الدين ايوب وفضّل الاقامة في جزيرة الروضة وبنى بها القلعة وأنشأ بها الدور والقصور وغرس الاشجار وبنى بها جامعاً وعمل لها سنين برجاً وأنفق اموالاً جمة. وهدم بسببها اماكن كثيرة من دور وقصور ومساجد ليدخلها فيها وخرب الهودج الذي كان قد شيده الآمر باحكام الله على شاطىء النيل. ولما كانت القلعة جعلها مقر الايوان الملكي الذي قال فيه ابن سعيد الاندلسي الرحالة المعروف

« وكنت أشق في بعض الليالي بالقسطاط على ساحلها فيزدهيني ضحك البدر في وجه النيل امام سور هذه الجزيرة الدري اللون. ولم انفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة وفي داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت اليه همة بانيها. وهم من أعظم السلاطين همة في البناء. وأبصرت في هذه الجزيرة ايواناً لجلوسه لم ترَ عيني مثاله ولا أقدر ما انفق عليه. وفيه من صفائح الذهب والرخام الابنوسي والكافوري والجزع ما يذهل الافكار ويستوقف الابصار »

وظلت قلعة الروضة عامرة حتى انتهت دولة الايوبيين. فلما تولى الملك السلطان الملك المعز عز الدين ايبك التركماني اول سلاطين المماليك بمصر امر بهدمها ليعمر منها مدرسته المدرية بمدينة مصر واقتدى به ذوو الجاه. فأخذوا عدة سقوف وشبابيك وبيع من اخشابها ورخامها أشياء جليلة

وقد ذكر في كتاب وصف مصر انه كان موجوداً في زمن الاحتلال الفرنسي بقايا قصر بالمقياس ملاصق له من الشرق ومطل على الفرع الشرقي للنيل يعرف بقصر السلطان الملك الصالح نجم الدين. ولم يكن باقياً منه وقتئذٍ غير قاعة كبيرة تتصل بها عدة أماكن اكثرها خرب. وهو بلا ريب من قصور القلعة الصلاحية وبما جدده فيه السلطان الغوري من القاعات أو المساكن

« للحديث صلة »